محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة ابتسام مرهون الصفار ، وديوان مالك بن الريب

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

مالك بن الريب :

اسمه ونسبه :

مالك بن الريب بن حَوْط بن قُرط بن حسل بن ربيعة بن كابية بن حُرْقُوص بن مازن بن عمرو بن تميم[1] ، وكنيته أبو عقْبة[2] ، وأمه شَهْلة بنت سَنيح بن الحُرّ بن ربيعة بن كابية بن حرقوص بن مازن[3] . وقد أشار إليها فى بعض أبياته عند ما أحَسّ بالموت :

تُسائل شَهْلةُ قفّالها ... وتسأل عن مالك ما فعَلْ
ثوى مالك ببلاد العدوْ ... وتَسفى عليه رياح الشّمل
لذلك شَهْلة جَهّزتني ... وقد حان دون الإياب الأجل

وأشار إليها فى يائيته المشهورة .

قصيدة وتحليل

ولابد أن نقف عند قصيدة تعد من روائع قصائد رثاء الذات في أدبنا العربي، أنها قصيدة مالك بن الريب الشاعر البدوي الذي أحسَّ بدنو أجله وهو في جيش الفاتحين في إحدى قرى خراسان قال :

١- ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً
بجنبِ الغَضا أُزجِي القلاصَ النواجيا[٥٦]

٢- فليتَ الغضا لم يقطعِ الركبُ عرضَه
وليت الغضا ماشى الركابَ ليالا[٥٧]

٣- لقد كان في أهلِ الغضا لو دنا الغضا
مزارٌ و لكنَّ الغضا ليس دانيا

٦- دعاني الهوى من أهل ودي وصحبتي
بذي الطَبسين فالتفتّ ورائيا [٥٨]

٧- أجبتُ الهوى لَما دعاني بزفرةٍ
تقنَّعتُ منها -أنْ ألام- ردائيا

٨- أقولُ وقد حالتْ قرى الكُردِ بيننا
جزى الله عَمرا خير ما كان جازيا

٩- إنِ الله يرجعْني من الغزو لا أُرى
وإنْ قلَّ مالي طالباً ما ورائيا

١٠- تقولُ ابنتي لما رأتْ طولَ رحلتي
سفارُك هذا تاركي لا أبا لِيا

١١- لعمري لئن غالتْ خراسانُ هامتي
لقد كنتُ عن بابي خراسان نائيا [٥٩]

١٢- فإنْ أنجُ من بابي خراسان لا أعُدْ
إليها وإنْ منيّتموني الأمانيا

١٣- فللـه درّي يومَ أترك طائعا
بنيٌّ بأعلى الرقمتين ومالِيا

١٤- ودرّ الظباءِ السانحات عشيةً
يخبِّرْنَ أني هالكٌ من ورائيا[٦٠]

١٥- ودرُّ كبيريٌّ اللذين كلاهما
عليٌّ شفيقٌ ناصِحٌ لو نهانيا

١٦- ودرُّ الرجالِ الشاهدين تفتُّكي
بأمريَ إلاّ يقصروا من وثاقيا

١٧-ودرُّ الهوى من حيثُ يدعو صحابتي
ودرُّ لجاجاتي وَدُّر انتهائيا

١٨- تذكرت من يبكي عليٌّ فلم اجد
سوى السيفِ والرمحِ الرديني باكيا

١٩- واشقرَ محبوكٍ يجرُّ عِنانه
إلى الماء لم يتركْ له الموتُ ساقيا[٦١]

٢٠- ولكنْ بأكنافِ السّمينةِ نسوةٌ
عزيزٌ عليهنَّ العشيةَ مابيا

٥٦- وما كانَ عهدُ الرّمل عندي وأهله
ذميماً ولا ودّعت بالرّمل قاليا

٥٧- فمنهنَّ أمي وابنتايَ وخالتي
وباكيةٌ أخرى تهيجُ البواكيا[٧٤]

التحليل :

قائل القصيدة هو الشاعر مالك بن الريب من بني مازن نشأ في بادية بني تميم بالبصرة، بدأ حياته مع الفتاك واللصوص، ثم مسك -كما قيل - فامنه بشر بن مروان، ولما رأه سعيد بن عثمان بن عفان أعجب به لمروءته وفروسيته، وينقل لنا القالي محاورة جرت بينهما:

قال له سعيد: ويحك مالك؟ ما الذي يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العداء وقطع الطريق ؟

قال : أصلح الله الأمير، العجز عن مكافأة الأخوان .

قال : فإن أنا أغنيتك واستصحبتك ؟ أتكف عما تفعل وتتبعني ؟

قال : نعم، أصلح الله الامير، أكفُّ كأحسن ما كفّ أحد، فاستصحبه، وأجرى

عليه خمسمائة دينار في كل شهر، وتعد قصيدته اليائية هذه من روائع الشعر العربي، فهي أنموذج فني عال في رثاء النفس، وتصوير الأحاسيس بدنو الأجل.

وقد قيل إنه قالها حين حضرته الوفاة، وقيل انه قالها قبل موته بسنة [٧٥]، وفصّل بعضهم في سبب وفاته. [٧٦] وذكر ابن عبد ربه إنه حين خرج مع سعيد بن عثمان بن عفان، وكان يوما ببعض الطرق أراد أن يلبس خفه، فإذا بأفعى في داخلها فلسعته، فلما أحسّ بالموت استلقى على قفاه، ثم انشأ يقول [٧٧]. ويبقى المهم في هذه الروايات أن الشاعر قال القصيدة وقد أحسّ بدنو أجله.

الأبيات ١-٥

بدأ الشاعر قصيدته بالتشوق إلى ديار أهله وأحبته، وتمنى لو أنه يستطيع أن يبيت ليلة فيها، يمارس حياته الاعتيادية، يسوق الإبل، شأنه شأن فتيان قبيلته، ويشتد شوقه الى تلك الديار فيبرز اسمها الغضا بشكل إيقاع مؤلم موجع من خلال تكرار اللفظ خمس مرات في الأبيات الثلاثة الأولى، وهو يتمنى أن يكون الغضا قريبا منه ليزوره، أو أنه لم يبرح الغضا، ولم تقطعه ركاب المسافرين، وحين يشعر إنها أمنية بعيدة يحاول اقناع نفسه وتذكيرها بأنه هو نفسه قد اختار البعد عن ديار أهله، حين اختار طريق الهداية، وانخرط مع جيش الفاتحين. وقد ترك تكرار الغضا ست مرات إيقاعاً مكثفاً لحالة الحزن والأسى وتذكر الديار.

وهنا يصور الشاعر الأبيات من ٦-٩ خلال لوحة فنية جميلة ما تركه تذكر أهله وحنينه إليهم من أثر في نفسه، لقد أثيرت عواطفه ودمعت عيناه، واستحيا من موقفه فحاول اخفاء دموعه بأن تقنع بثوبه، وصحب هذا المشهد تصاعد زفرة عالية تظهر حزنه وتشوقه. وحين يحس الشاعر بوطأة البعد والفرقة والغربة يعاهد نفسه إلا يغادر دياره إن سلم من هذه الرحلة، وانه سيقنع بالقليل الذي عنده.

الأبيات ١٠-١٧

إن من يكون في أرض غريبة بعيدة عن أهله، ويتشوق إليهم يتذكر في لحظات بعض مواقف الحب والمودة التي تربطه بهم، والتي بقيت راسخة في مخيلته، فابنته تحنن

قلبه لئلا يبعد عنهم، خشية أن يهلك ويتركها يتيمة، ويتعجب من نفسه كيف اختار بإرادته ترك دياره، كما يعجب من قدرته على مفارقة أبويه الكبيرين، ويتساءل بعد ذلك كيف استطاع البعد عن أهله وإخوانه ممن كانوا يشهدون أيامه ونشاطه. وهذه الأبيات صور رائعة للإحساس بالأبوة والبنوة معا والارتباط بالأهل والديار والحنين إليهم.

الأبيات ١٨ - ٣٣

هنا ينتقل الشاعر واصفاً حاله وهو يخشى دنو أجله، فإذا كانت صور أهله الجميلة وذكرياتهم تتراءى في ذهنه فانه سرعان ما يعود إلى الحديث عن غربته، ماذا يحدث له إنْ أجله حان فيها ؟ لن يبكي عليه أحد سوى سلاحيه اللذين لازماه دائما، سيفه ورمحه، وفي هذه الصورة إشارة رائعة إلى فروسيته وشجاعته، لا يبكي السيف إلا لفراق الفارس البطل، ويشاركهما في البكاء فرس أصيل كان رفيق الشاعر في المعارك وكان شاهدا على بطولته وبلائه، وإنه لن يجد نداً لمالك – بعد وفاته – يحل محله ويأخذ بعنانه الى الماء، فكيف بمن يصحبه في ساحة المعركة؟ أنه أسف البطل على مفارقة حياة البطولة والفروسية.

وقد أكد الشاعر هذه الصورة مرة أخرى حين خاطب صاحبيه في البيت ٢٨ بان يحفرا قبره بأطراف الاسنة، مخالفاً ما هو معروف من حفر القبور بادوات الحفر المتداولة، لأنه فارس مقاتل، فقبره يجب أن يحفر بما يليق بمكانته وحياته، ومع هذا فإنّ ألمه على ما سيؤول إليه حاله إذا فارقت روحه الجسد كبيراً، هذا الألم يصور له حاله، وهو يجر إلى مثواه الأخير، فيذكّر صاحبيه بأنه كان في حياته أبياً صعب القياد، فارسا يكر على الخيل اذا أدبرت، ويسرع إلى الحرب إذا اشتدت. وبذا يعدد لنا مالك مآثره وبطولاته مما يبعد نفسه عن الجزع لدنو الأجل.

أما في ديار أهله فان الشاعر يسرح بمخيلته مصورا ما سيحدث حين يبلغ نعيه قومه، فتبكيه نسوة يعز عليهن فراقه.

لقد عُرف الرثاء على أنه تعداد لمآثر المرثي ومفاخره، ومالك هنا هو الراثي والمرثي معا لذا يعدد مآثر نفسه، فهو جَلْد في الحرب، عفيف في السلم، لا يشتم ابن

عمـه ولا يؤذيه، وحياته بين يومين يوم يتنعم بالراحة مع صحبه وملاعبة خيله، ويوم يصول ويجول في ساحة الحرب.

الأبيات ٣٤ فما بعدها

يعـود الشـاعر إلى مخاطـبة رفيقيه اللذين يتوقع أن يقوما بدفنه أو تبليغ خبره إلى أهلـه. فيوصـيهما بأن يقفا عند بئر السمينة حيث مجتمع بنات قومه، لينبئهن بأنه مات غريـبا، وقـد أُهيل عليه التراب في أرض بعيدة مقفرة، فيتخيل حاله وهو مفرد غريب وحيد حين يتركه رفاقه، ليبلغوا خبر وفاته لأهله فيبكي على نفسه متذكرا مشاهد من حـياته اليومية في ديار أهله، وكيف سيفتقدونه وأولهم أمه، ويتساءل تساؤل المقر بأنها سـتبكي علـيه كمـا أنهـا لو ماتت قبله لاشتد بكاؤه عليها. ويوصي أمه لتزور القبور وتذكر موته النائي الغريب.

ثـم تـلح عليه مرة أخرى صورة بلوغ خبر نعيه الى مسامع اهله، وكيف يصيبهم الحزن، فتنفلق أكبادهم، وتبكيه الباكيات، ويتخيل هذه الصورة فيرسمها ببعدين، بعد احبـته وأهلـه، وقد بلغهم نعيه، ومع شدة حزنهم وبكائهم عليه تتمنى نسوة من أهله ان لـو كـن قريـبات مـنه لفدّين الطبيب المداوي علته، ويتخيل بينهن وجه أمه وابنتيه وخالـته، وامـرأة رابعـة لم يسمها وانما وصفها بانها تهيج البواكيا، وهذه قد تكون أي امـراة مـن قومـه أحزنها فقده وقد تكون زوجه، فهي تعول، وتبكي، وتهيج الباكيات إذا هـدأ بكـاؤهن. أمـا البعد الثاني للصورة فهو وصف قبره المفرد الغريب في أرض مقفرة موحشة غريبة.

وبعـد، فـإن هـذه القصيدة وان كانت لا تصور أحداث الفتوح والجهاد إلا أنها منبـثقة مـن ظروفها، إذ أن انخراط الشاعر في جيش سعيد بن عثمان بن عفان وسيره في أراض غريـبة عـن ديـاره أدخلـت في نفسـه مشـاعر الشـوق والحـنين، وتجسـدت أحاسيسـه بشـكل مـثير للعاطفـة، حين شعر بدنو أجله مصوراً لنا الغربة بكل الامها ووحشـتها، وجسـد لنا أيضا الحنين الى الأهل والديار بكل ما يحمله من مشاعر الرقة والحب والالفة، وعبر عن هذين الموقفين أروع تعبير، جعل القارىء يتخيل من خلال

القصـيدة صورة الفارس البطل المقاتل، وصورة المحب المتشوق الى أهله وموطنه. ومع ذلك نلاحظ خلو القصيدة من كل ما يتعلق بمعاني الفتوح والجهاد، ولم يحاول الشاعر ان يسلي نفسه بالأجر والثواب كما يتوقع، وكما فعل المجاهدون، ولم ينقل لنا أمله في عـده شـهيداً، أو رغبته في الشهادة كما فعل عبد الله بن رواحة، لكن الملاحظة ليست غريـبة كـل الغـرابة اذا تذكرنا شخصية مالك بن الريب قبل انخراطه في جيوش سعيد بـن عـثمان، اذ لم يكن له رابط ديني قوي بالجهاد، والمجاهدين، وكل ما حققه له نسكه وتوبـته هـو انخـراطه في هـذا الجيش، فهو يختلف عن حال المجاهد الذي صرف نفسه وحياته للجهاد بفكره وسلوكه.

وتـبقى صـورة مالك بن الريب الإنسان الذي أحس بدنوّ أجله، فصور مشاعره الرقيقة إزاء موطنه وحنينه إلى أهله وأحبته.